﴿فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾

هكذا هم المنافقون

المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

«يستند القرآن الكريم -الذي هو كتاب هداية وتربية- في طريقته إلى الوقائع العينية لتقريب المفاهيم الصعبة إلى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسّية من حياتهم». هذا ما ذكره المرجع الديني الشيخ مكارم الشيرازي في كتابه «الأمثل في تفسير الكتاب المنزل». ومنه يكون وقوفنا عند أوّل مثلين ضربهما القرآن الكريم في الآيات (١٧ - ٢٠) من سورة البقرة، يصف فيهما حال المنافقين، والآيات هي قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بعد أن بيّن القرآن صفات المنافقين وخصائصهم [في الآيات ٨ إلى ١٦ من سورة البقرة]، يقدّم مثالين متحرّكين لتجسيم وضعهم:

الأوّل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ في ليلة مظلمة، كي يهتدي بها إلى طريق ويبلغ مقصده. ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾.

لقد ظنّ هؤلاء أنّهم قادرون على أن يحقّقوا أهدافهم بما لديهم من إمكانات إنارة محدودة. ولكنّ نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوية، أو بسبب نفاد الوقود، وظلّوا حائرين لا يهتدون سبيلاً.

ثمّ تضيف الآية الكريمة أنّ هؤلاء فقدوا كلّ وسيلة لدرك الحقائق: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

والمثال المذكور يصوّر بدقّة عمل المنافقين على ساحة الحياة الإنسانية. فهذه الحياة مملوءة بطرق الانحراف والضلال، وليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهداية، وهذا الطريق مليء بالمزالق والأعاصير، ولا يستطيع الفرد أن يهتدي من بين الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كما لا يستطيع أن يتجنّب المزالق ويقاوم أمام الأعاصير، إلّا بنور العقل والإيمان، وبمصباح الوحي الوهّاج.

هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنّوا أنهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم ومصالحهم لدى المؤمنين والكافرين. وأن ينضمّوا إلى الفئة الغالبة بعد نهاية المعركة. كانوا يخالون أنّ عملهم هذا ذكاء وحنكة. وأرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء وهذه الحنكة، كضوء يشقّ لهم طريق الحياة ويوصلهم إلى مآربهم. لكنّ الله سبحانه ذهب بنورهم وفضحهم.

جدير بالذكر أنّ القرآن استعمل عبارة (اسْتَوْقَدَ نَارًا) أي إنّهم استفادوا للإنارة من «النّار» ذات الدخان والرماد والحريق، بينما يستنير المؤمنون بنور الإيمان الخالص وبضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوي على النار، وإن تظاهروا بنور الإيمان، وإذا كان ثمّة نور فهو ضعيف في قوّته، وقصير في مدّته.

هذا النور الضعيف المؤقّت، إمّا أن يكون إشارة إلى الضمير والفطرة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأوّلي لهؤلاء المنافقين.

مثال آخر لحال المنافقين

في المثال الثاني صوّر القرآن حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل فيها مطر غزير، وينطلق من كلّ ناحية منها نور يكاد يخطف الأبصار، ويملأ الجوّ صوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان. وفي هذا المناخ القلق ضلّ مسافر طريقه، وبقي في بلقع فسيح لا ملجأ فيه ولا ملاذ، لا يستطيع أن يحتمي من المطر الغزير، ولا من الرعد والبرق، ولا يهتدي إلى طريق لشدّة الظلام.

هذه الصورة يرسمها القرآن على النحو التالي: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟..﴾.

هؤلاء يحسّون كلّ لحظة بخطر، لأنّهم يطوون صحراء لا جبال فيها ولا أشجار تحميهم من خطر الرعد والبرق والصواعق، ونحن نعلم أنّ خطر الصاعقة يتّجه إلى كلّ ارتفاع على الأرض. لكنّ الأرض التي يسير عليها هؤلاء خالية من أيّ ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، ومن هنا فخطر الصاعقة يهدّدهم كلّ آن بتحويلهم إلى رماد!

المنافقون مثل هؤلاء المسافرين، يعيشون بين المؤمنين المتزايدين المتدفّقين كالسيل الهادر وكالمطر الغزير، لكنّهم لم يتّخذوا لهم ملجأ آمناً يقيهم من شرّ صاعقة العقاب الإلهي.

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادي المسلح بوجه أعداء الإسلام يشكّل صواعقَ وحمماً تنزل على رؤوس المنافقين. وتسنح أحياناً لهؤلاء المنافقين فرصة للهداية واليقظة، لكنّ هذه الفرصة لا تلبث طويلاً، إذ تمرّ كما يمرّ نور البرق، ويعود الظلام يُطبق عليهم، ويعودون إلى ضلالهم وحيرتهم.

انتشار الإسلام بسرعة كالبرق الخاطف قد أذهلهم. وآيات القرآن التي تفضح أسرارهم صعقتهم، وفي كلّ لحظة يحتملون أن تنزل آية تكشف عن مكائدهم ونواياهم.

والمنافقون خائفون أيضاً أن يأذن الله بمحاربتهم، وأن يحثّ القوّة الإسلامية المتصاعدة على مجابهتهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ (الأحزاب:٦٠-٦١).

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادي بوجه أعداء الإسلام يشكّل صواعق تنزل على رؤوس المنافقين

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

تحوُّل المتكلّم من الغَيبة إلى الحضور

آية الله الشيخ جوادي آملي

لقد انتهت في العدد الماضي رحلتنا مع موجز تفسير السور القرآنية الـ ١١٤، وكانت المنهجية المتّبعة هي: التعريف الإجمالي بكلّ سورة؛ سبب تسميتها، عدد آياتها، فضل تلاوتها، محتواها، ومختارات من التفسير الروائي لآيات منها.

ومتابعة منّا لرحلة التعرّف إلى الثقل الأكبر، ستكون وقفتنا القرآنية التفسيرية ابتداء من هذا العدد -بحول منه تعالى- مع آيات مختارة، نعرج في فضاءاتها الرحبة، مستفيدين من الكنز المعرفي الثرّ (تفسير تسنيم) للفيلسوف الإسلامي الكبير آية الله جوادي آملي حفظه المولى تعالى.

ومن آيات فاتحة الكتاب انتخبنا الآية الخامسة منها، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مستعرضين جانباً من تفسير سماحته لها.

«شعائر»

﴿إِيَّاكَ﴾: ضمير منفصل مفعول به، وهو مقدّم على الفعل (نعبد) لإفادة الحصر. إضافة الى ذلك فإنّ هنا في خصوص هذا المقام فائدة مهمّة تمّت ملاحظتها؛ وهي تقدّم المعبود على العابد والعبادة، وكما سيتّضح خلال البحث، فإنّ التوحيد الخالص يقتضي حصر المشهود بالمعبود، بحيث لا يُرى عندئذ لا العابد ولا عبادته، حتّى يتخلّص من آفة التثليث في المشهود، ويتجنّب من التثنية فيه أيضاً.

﴿نَعْبُدُ﴾: العبد، بمعنى الإنسان المملوك للغير، وإذا جرّدنا هذه الكلمة من الصفات الإنسانية، فإنّ معناها (الموجود ذو الشعور الذي هو ملك للغير)، وبهذا الاعتبار يُطلق على جميع الموجودات ذوات الشعور ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (مريم:٩٣)، وكلمة (العبادة) تفيد هذا المعنى أيضاً، وإن كان معناها يتغيّر تبعاً للاشتقاقات المتعدّدة واختلاف الموارد.

"..." وبالعبادة لله يظهر الإنسان ويُثبت مملوكيّته لربّه، ولذلك لا تجتمع العبادة مع التكبّر ﴿..إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ غافر:٦٠.

﴿نَسْتَعِينُ﴾: وهي طلب العون، وهو بمعنى مطلق النصرة والمساعدة. ومفردات: المعاونة، والمساعدة، والمظاهرة، والمعاضدة، جميعها بمعنى: (المشاركة في أداء العمل)، لكن في كلّ واحدة منها لوحظت جهة خاصّة، فالعمل الذي يقوم به عدّة من الناس بمساعدهم يسمّى مساعدة، وإذا قاموا به بأعضادهم سمّي معاضدة، وإذا اجتمعت أظهرُهم لتوجد قوّة أكبر نسمّي ذلك العمل مظاهرة. وكلّ هذه العناوين مشتقّة من الجوارح، وأمّا العون والمعاونة فلوحظ فيها التقوية فقط دون ملاحظة أيّ صفة أخرى، ولهذا يعبّر بها عن مطلق (المساعدة والمشاركة في أداء العمل).

سرّ الالتفات من الغَيبة الى الخطاب

في الآيات الأولى من سورة الحمد كان الكلام لنحو (الغَيبة)، وفي القسم الأخير من السورة الذي يبدأ بالآية محلّ البحث تحوّل إلى لسان الخطاب والحضور. وهذا التغيير في السياق يسمّى في العلوم الأدبية (البديع) بـ: (الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب)، وهو مجرّد تفنّن في الأدب، ولأجل تزويق الكلام. وزمامه بيد المتكلّم، فإذا أراد أن يُضفيَ على كلامه نحواً من الجمال، ويجعله جذّاباً ولافتاً، فإنّه يفرض الشخص غائباً تارة، وأخرى يجعله مخاطَباً، لكن في هذه الآية الكريمة، ليس الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب تفنّناً أدبياً محضاً كي يكون زمامه بيد المتكلّم، فيفرض اللهَ غائباً تارة، ويفرضه حاضراً تارة أخرى، بل إنّ زمام الأمر هو بيد المخاطِب.

وتوضيح ذلك هو: أنّ فهم الأسماء الحسنى والاعتقاد بها في بداية هذه السورة لأجل دعوة الإنسان الغائب وجذبه إلى الحضور أمام الله سبحانه. فاذا ما ثبت لأحد أنّ الله سبحانه جامع لكلّ كمال وجودي فهو (الله)، وأنّ له ربوبية مطلقة على كلّ عوالم الوجود الإمكاني، فهو ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وأنّ رحمته المطلقة قد وسعت كلّ شيء، فهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وأنّ له رحمة متميّزة اختصّ بها المؤمنين والسالكين سبيله، فهو ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي النهاية ستظهر مُلكيّته المطلقة لكلّ شيء في ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فهو ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ولا موجود سواه أهلٌ للخضوع والمخاطبة، فاذا آمن الشخص بجميع هذه المعارف، فإنّ مثل هذا الشخص الذي كان غائباً لحدّ الآن، سيتحوّل من الغَيبة إلى الحضور، وسيرى نفسه أمام الله سبحانه، ويجد نفسه جديراً بالتخاطب معه.

إذاً فالاختلاف في المتكلّم الذي تحوّل من الغيبة إلى الحضور، لا في المخاطَب الذي لا يغيب أبداً، لكن الذي لم يدرك هذه الأسماء الحسنى أو لم يعتقد بها فليس جديراً بالخطاب، ولا يحقّ له أن يكون حاضراً أمام الله تعالى، لأنّه هو غائب، وإن كان الله سبحانه هو المشهود المطلق.

براهين حصر العبادة والاستعانة

إنّ الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تدلّ بوضوح على حصر العبادة والاستعانة بالله سبحانه، والأسماء الحسنى: (الله)، و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، التي ذُكرت في الآيات السابقة إضافة إلى أنّ كلّا منها حدّ وسط في البرهان على إثبات الحمد وحصره بالله سبحانه، فهي أيضاً حدّ وسط في البرهان على «حصر العبادة»، و«حصر الاستعانة» به تعالى: مثلاً، بالاستفادة من اسم (الله) يقرَّر البرهان على النحو الآتي: (إنّ الذات المقدّسة لله جامعةٌ ومتضمّنة لجميع أنواع الكمال الوجودي، ومثل هذا الوجود الكامل هو المعبود الوحيد، والمستعان الوحيد لجميع عوالم الوجود، وعليه، فإنّ العبادة والاستعانة مختصّة به).

والاختلاف الموجود بين البراهين المذكورة هو أنّ بعضها كالبراهين التي حدُّها الوسط هو «الجامع للكمال»، و«الربوبية المطلقة»، و«الرحمة الواسعة»، و«الرحمة الخاصّة»، ناظرة إلى النظام الفاعلي لعالم الخلق، وصدور الموجودات من مبدأ الوجود، والبعض الآخر كالبرهان الذي حدّه الوسط هو (مُلكية يوم الدين) ناظر إلى النظام الغائي، ورجوع الموجودات إلى الله سبحانه، ومن الواضح أنّ للرجوع مراتب ومراحل، والمرحلة النهائية فيه هي القيامة الكبرى، وبعض مراحل النظام الغائي تقع أيضاً قبل القيامة الكبرى.

ويستفاد من بعض آيات القرآن الكريم أيضاً برهان ناظر إلى كلا النظامين: الفاعلي والغائي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود:١٢٣)، أي ليس ظاهر السموات والأرض وحده لله، بل إنّ غيبها وباطنها أيضاً لله، وإليه يرجع الأمر كلّه. إذاً فكلّ شيء جاء منه وإليه يعود، وعليه: يجب لا على الإنسان وحده، بل على كلّ موجود أن يقول: ﴿..إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦). ويحتمل أن يكون معنى رجوع الأمر إلى الله هو عودة تدبير وإدارة أفعال النظام الكوني. وعلى كلّ حال فانّ الله الذي هو مالك لظاهر وباطن السموات والأرض في قوس النزول، وفي قوس الصعود أيضاً ترجع إليه جميع الأمور هو وحده المستحقّ للعبادة "..".

فالإنسان، موحّداً كان أو ملحداً، فإنّه ضعيف ومحتاج: ﴿..وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨)، لكنّ الموحّد يرى أنّ الله يقوّي ضعفه ويقضي حوائجه، بينما الملحد يرى أن الطبيعة تدبّر أمره. ومفاد هذه الآية الكريمة هو: حيث إنّ زمام الأمور في الصعود والنزول هو بيد الله سبحانه، لذلك وجب أن يكون هو الملجأ الوحيد في العبادة والتوكّل. وفي نظام الوجود ليس هناك شيء يمكنه أن يبقى في محلّه راكداً واقفاً لا يتحرّك نحو الله، ولا يمكنه أن يختار له في سيره الوجودي سبيلاً آخر لا ينتهي به إلى الرحمة أو الغضب الإلهي، فاذا كان الموجود متحرّكاً -شاء أم أبى- فالجدير به أن يعود إلى موطنه الأصلي، ويرتمي في أحضان الرحمة الإلهية.

وجملة: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ في ذيل الآية المذكورة برهانٌ أيضاً على أن عبادة العابدين وتوكّل المتوكّلين، جميعه محفوظ ومثبت عند الله "..".

وفي بعض آيات القرآن الكريم مضافاً إلى ذكر «الاسم الجامع للكمال»، و«الربوبية»، فقد ذُكرت صفة «الخالق» كحدّ وسط في البرهان على ضرورة العبادة والتوكّل وحصرهما في الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام:١٠٢)، فالإنسان يجب أن يعبد ربّه وخالقه ويتوكّل عليه، والله وحده ربّ الإنسان وخالقه، إذاً، فهو وحده المعبود، وهو وحده الملجأ للإنسان.

التوحيد الخالص يقتضي حصر المشهود بالمعبود

بالعبادة يُثبت الإنسان مملوكيّته لربّه

الله سبحانه هو المشهود المطلق